جويا

أمام متحف برادو بمدريد وعلى بضعة أمتار من مدخله الرئيسي أقيم تمثال لجويا أعظم فناني أسبانيا في القرن الثامن عشر تقديراً لأعماله والاعتراف بفضله في عالم الفن والاشادة بذكراه على ممر العصور .

وجويا هو ذلك الفنان الموهوب الذي ظهر بوجوده فن التصوير في أسبانيا ، كما أنه أول فنان تأثر بالثورة الفرنسية فظهرت أسبابها ومقوماتها والظروف التي دعت الى نشوبها من بؤس الطبقات وانحطاطها وكبت الحريات وتحكم الاشراف فيمن هم دونهم . ظهر كل ذلك في رسوم جويا ، فجاءت صوراً حيّة واقعيّة تعبر عما كان منتشراً في أسبانيا خلال القرن الثامن عشر . ولذلك اعتبر أول رسام واقعي لمن خلفه من الفنانين في القرن التاسع عشر .

وكان لتاريخ حياته وتقلبه بين الطبقات التي كانت سائدة في عهده صدًى كبير في تفكيره ، إذ استطاع أن يندمج في طبقتي الشعب والتطفل الى كنهها والوقوف على كثير من عيوبها ، فجاءت رسومه آية حقيقية واقعية لما يدور في أسبانيا ، رسم بعضها بطريقة تهكمية لاذعة ، ناقداً تلك النظم السائدة ومساوئها .

ولد جويا في أراجون في ٣٠ مارس ١٧٤٦ ، فتشبع من صغره بالرسم ، وظهر ميله الى تلك الرسوم التي خطتها ريشته في مستهل حياته ، فتعلم على يد أحد الرسامين في سرقسطة ، وقويت رغبته في الرسم بصورة واضحة عند ما بلغ الثانية عشرة من عمره واضطر على إثر مشادة قتل فيها ثلاثة من رفاقه أن يسافر الى مدريد حيث استطاع أن يكمل دراسته ، فاختلط بالطبقات المنحطة وتأثر بهم ، وأخذ يدعو بريشته الى الثورة للتخلص من تلك القيود الاجتماعية التي فرقت بين الطبقات وأردت سواد الشعب الى الحضيض .

وفي مدريد اتصل بثلاثة من الرسامين . أحدهم هنج الألماني والآخران هوس ولويس ميشيل فان لو الفرنسيان . وجميعهم متفلعون في الرسوم الشخصية ، فأخذ عنهم ذلك النوع من الرسم وأكمل فنه وبز أقرانه ، إلا أنه لم يستطع البقاء في مدريد فاضطر الى السفر الى ايطاليا ، فاتجه صوب الساحل الشرقي مع إحدى فرق مصارعة الثيران . ومن ثم وصل الى روما بعد اعياء شديد ، واختلط بالأوساط الفنية ، ومنح الجائزة الثانية في المسابقة التي عملتها أكاديمية بارما . ثم عاد الى سرجوسا ثانياً حيث ظهرت باكورة انتاجه في الرسوم الفريسكو

التي زخرف بها كاتدرائية سرجوسا المشهورة ١٧٧١ Nuestra Senora Del-Pilar

وتزوَّج من أخت أستاذه Francisco Bayeu الذي عهد اليه بوظيفة رسام بالبلاط الملكي فأنتج جويا بين عامي ١٧٧٦ — ١٧٩١ ثلاثاً وأربعين لوحة رائعة أظهر فيها من روائع الفن ما أدهش الآخرين بفنه وعبقريته في اظهار الظل والنور مع التلوين . ولما تشعه رسومه من روح وقوة لم يَنْسَجْ نحوها غيره من الفنانين في هذا العصر فأعجب به الملك شارل الثالث وقد رسم صورته ، كما رسم صور أربعة ملوك تتابعوا بعده منها ، صورة شارل الرابع وزوجته ميرادو وغطاء رأسها ودونا تريزا ، كما صوَّر رجال القصر فصلحت حاله وذاعت شهرته حتى سمي رسام القصر ١٧٨٩ ، كما رسم صورة مدام البا والمركيزة دي لامرسيد وغيرها . ولم يصرفه عمله كفنان عن الخوض في غمار حياة القصر والطبقة الارستقراطية .

وفي عام ١٧٩٢ قاسى جويا من مرض كاد يصمه فانعكف عن العالم غارقاً في آلامه وهواجسه التي أرهفت حسه وزادت من تشاؤمه . وفي بداية ١٧٩٣ رسم بعض الصور الشعبية متأثراً بالظروف التي كانت سائدة في فرنسا في القرن التاسع عشر فجاءت لاذعة تنتقد الحياة الاجتماعية ، وتعرف تلك الصورة « بالأهواء » منها رسم قسيسين يعبدون في غير ورع ولا خشوع . كما رسم دور الغوغاء والسفاكين وغيرها . وهذه الصور وان لم تتم على جمال وتقاليد فنية حية كالتي نراها في الرسوم المسيحية كمناظر الرماة — فانها تكشف عن مرارة وهتك الحقيقة التي بلغت أوجها في المناظر الساخرة كتلك التي رسمها على جدران منزله في منزناريز وهي تمثل خرافات العرافات والأحلام المزعجة كصور Caprices & Disparates

ولستطاعت الحرب عام ١٨٠٨ تركيز همه في زيادة قوته والنشاط في عمله ، فصور فظاعة الحرب وأهوالها في رسوم كاريكاتورية . ومنها صورة تمثل هجوم أهالي مدريد على المماليك في اللوحتين المعروفتين بـ « ٢ مايو » و« ٣ مايو » وفي هاتين اللوحتين ظهر الشعور الأسباني وعصبيته الدينية ورغبته الملحة في الاستقلال وتمثيله بالأتراك طلباً للحرية .

ولما أحسَّ ان الطبقة الحاكمة بدأت تفهم مقاصده وتحريضه للثورة وتهكمه على رجال الدين ، سافر الى فرنسا حيث مات في بوردو ١٨٢٨ . وفي الفترة الأخيرة من حياته لم يفكر إلاَّ في التصوير والنحت ، فنحت بعض الرسوم كمصارعة الثيران وهو موضوع عرفه أيام صعلكته ومات بعد ان ترك ثروة فنية هائلة أثارت دهشة الفنانين الآخرين لقوتها الفياضة الممثلة في الحوادث البريئة والمزرية ، كما نتحت أعمال جويا آفاقاً جديدة في الفن في عالم الخيال والحقيقة . ولم تكن رسومه قاسية أو محزنة كما يظن البعض ، وإنما كانت ثورية ولم يكن جويا فنانا ارستقراطيًّا ، وإنما كان رساماً ، ولده الشعب للشعب ، لأنه رسم لهم أكثر مما رسم لطبقتهم ، وأول رسام للقصر كما انه أول رسام للثورة .

محمد سعيد العريان